الفصل الرابع

المِجهر

الدين والحكمة والقوة

سؤال: ترون أن "ثمّة ثلاثة عناصر مهمة تُحيي الأمم: الدين والحكمة والقوة"، فليتكم تبيّنون لنا هذا؟

الجواب: أولًا: الدين: "وضعٌ إلهيّ سائقٌ لذوي العقول باختيارهم المحمودِ إلى ما هو خيرٌ لهم بالذات"، وهذا التعريف الإجمالي موافق لما في الكتاب والسنة ولو لم يرد فيهما بهذا اللفظ؛ فالدين نظام إلهي أو مجموعة أنظمة إلهية، وأهم ما يميزه عن الأنظمة البشرية أنه وضع إلهي؛ لذا أُطلق على الأنظمة الأخرى "الوضع البشري" أو "القوانين الوضعية" أي قوانين وضعها البشر؛ وسَوْقُ الناس بالدين إلى الخير أمرٌ خاصٌّ بالله ﷻ، لكن هذا السوق لا ينفي إرادة الإنسان، فالناس ذوو إرادة وإن كانت نسبيةً؛ لذا لا يُساقون كالجمادات من نقطة إلى أخرى؛ والنتيجة أن الدين نظام إلهيّ كليّ متمثلٌ بالكتاب والسنة، وصفوة اجتهادات السلف الصالح فيهما.

ثانيًا: أما الحكمة فلها تعريفات، قال الله ﷻ مخاطبًا الرسول ﷺ: ﴿**وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ١١٣/٤)، فعطف الحكمةَ على الكتاب؛ لذا قال كثيرٌ من المفسّرين: إن الحكمة غير الكتاب، لأن المعطوف غير المعطوف عليه، وقال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٢٦٩/٢)؛ والسنةُ مصدرٌ لخير عظيم وفير يُضاعِفُ الواحدَ إلى الألف، ويوسّع الدائرة، فهي تفصّل مجمل القرآن، وتخصص عامَّه، وتعمّم خاصَّه، وتقيد مطلقه، وتطلق مقيده؛ لذا يرى المحدثون أن السنة هي المقصود من الحكمة المذكورة في الآية؛ فالسُّنةُ خير كثير، ورسولنا ﷺ هو أول وأعظم ناهلٍ من هذا الخير.

وقد حُملت الحكمة أيضًا -كما أشار الأستاذ النورسي- على أنها تبيان القضايا الإسلامية التي عُلّمْناها حقًّا وحقيقةً بالكشف والمشاهدة، والاطلاع على ما وراء الحجب؛ إننا نرى حولنا بابًا ونافذة وأربعة جدران فحسب، أما الصادق المصدوق ﷺ فيقول: "**إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلّٰهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ**"(٨٨).

(٨٨) سنن الترمذي، الزهد، ٩. (وروى بعضه البخاري ومسلم في صحيحيهما، انظر: صحيح البخاري، الكسوف،٢؛ صحيح مسلم، الكسوف، ١).

وقد بُحث في مفهوم الحكمة الاطلاع على ما وراء الحجب بهذا المعنى، ويتحقق هذا الاطلاع بانكشاف الحدس وسعة الخيال وبالكشف والمشاهدة، وما نعلمه نحن علم اليقين ونستدل عليه بالعقل يكتشفه أهل الله في ضمائرهم، ويحسّون به، بل يعيشونه، وهذا خير كثير أيضًا.

واستُخدمت الحكمة بمعنى الفلسفة أيضًا، فمعظم المحقّقين تصدوا للفلسفة منذ زمن بعيد. نعم، تسللت إلينا أفكار فلسفية من تهاوننا حينًا من الدهر، لكن علمَ الكلام وما فيه من أدوية وعلاج يشبه المضادات الحيوية قضى على تلك العدوى والفيروسات والجراثيم؛ فإذا تحدّث الفلاسفة مثلًا عن التسلسل أبطله علماء التوحيد، وواجهوهم بسهولةٍ بما زعموه دليلًا على فلسفتهم.

وما زالت مقاومةُ العلماء المحققين كالإمام الغزالي للتهافتات الفلسفية ملحمةً تتناقُلها الألسنة. أجل، إن الإمام الغزالي عَلمٌ بارز في إبراز تهافت الفلاسفة، فقد فضح أمام الناس تهافتهم وترديهم، وتصدّى المفكرون الكبار كالإمام الغزالي وبديع الزمان لبعض العقليين والوضعيين القدامى والمحدثين، واختبروا مسائلَ العلوم "المنطقية" و"العقلية" بطرقٍ ومناهج ليست من الكشف والمشاهدة في شيء، بل كأنهم خبراء في تلك العلوم أيضًا، ولو عُد هذا فلسفةً، فهي فلسفة توافق قيمنا ومبادئنا، ويمكن إدراجها وبحثها في مفهوم الحكمة.

وما كاد الإمام الغزالي يكفِّرُ الفلاسفة إلّا لأن في آرائهم ومعتقداتهم ما يلزم عنه الكفر مثل دعواهم أن العمل بالنص هو ضرب من الحماقة، وأنّ عِلم الله محدود، وأن الفلاسفة أفضل من الأنبياء، وإنكارهم حشر الأجساد؛ إلّا أن تصرفاتهم هذه ردّ فعل لأهل الظاهر منا من جهة ما. نعم، علينا ذكر السابقين بالخير وحسن الظن بهم، إلّا أنهم يستحقون وصفهم بـ"ذوي العقول المتحجرة" التي تُجمّد الفكر الإنساني مطلقًا، حتى إنها توجب العمل بكلّ ما صحّ، وتعجز عن الترجيح عند تعارض النصوص والروايات؛ إن إفراط هذه الفئة من أهل السنة هي من أسباب تفريط الفلاسفة.

هذا وإن لم نعد الفلسفة المشوبة بالبِدَع حكمة، لكنا نعد من مفهوم الحكمة النظر في قضايانا المعاصرة في ضوء المنطق لمواجهة تلك الأفكار، أي ننظر فيها من خلال مبادئ العلوم التجريبية والاجتماعية في ضوء منهج "عقلي" و"منطقيّ" موافق للكتاب والسنة.

ومن مفهوم الحكمة أيضًا البحث عما بين قوانين الكون وقوانين الحياة البشرية ومبادئها من تطابق، وإدراك فإبرازِ ما بين الكتاب المسطور والمنظور من توافق. أجل، لو تبدت لامرئ اختلافات بين الكتابين بأن كان يرى أحدهما نقيضًا للآخر دومًا لاستحال أن يُوفَّقَ هذا في الحياة الدنيا ولو كان من أهل الجنة.

إن إدراك تطابق الكتابين وتطبيقه على الحياة وقوانينها لهو أهم ركن في الحياة الدينية وفي تحقّق الفلاح في الدارين، ومن ثمرة

هـذا الإدراك ونتاجه المهم: التفقه والفقه الإسـلاميّ، فالفقه الحنفي هـو فقـه القياس والرأي، حتى إن الحنفيـة أصابهم نقد كثير في هذا، والحقُّ أنها مدرسـةٌ فقهية تبرز العلاقة بين الدين والإنسـان والكون علـى أفضل وجه، وغدَت الأسـاسَ الديني والقانونـي لإدارة الدول الكبـرى مثل دولة السـلاجقة والعثمانيين بل العباسـيين أيضًا، لأنها ملائمة للتطوّر والتمدّن أيّما ملاءمة.

إنمـا اتخـذت دول الخلافـة فقه الحنفيـة أصلًا التزمتـه لمرونته وسعته في القضايا الكليّة؛ وليست مواد القانون آخر العصر العثماني سـوى تنظيم لمدوَّنات القرن السـادس الهجري، وهذا وجهٌ آخر من الحكمة.

ثالثًـا: إنّ منزلـة القوة تلي الدين والحكمة، إذ لو لم تُجهّز قوانين الحكمـة ودسـاتير الدين والدولـة بالقوة، لبقي كل شـيء حبرًا على ورق، ولمـا أمكـن التأثيـر علـى الناس كمـا ينبغي، وتعسَّـر أو تعذَّر تطبيق الحكمة في الحياة؛ فلو انتفت القوة فأنى للحكمة المكنونة في أدراج المكتبـات والعقول والقلـوب أن تُطبّق على الحياة؟ فالماضي والحاضر شـاهد على هذا؛ ذلك أن عتاة القوة الغاشـمة لم يسـمحوا بهذا؛ إذ أداروا ظهورهم للعلم والحقيقة، وظنوا أن كل شـيء يمكن حلـه بقـوّة الذراع؛ ولهذا فمـا تفعله أيّ أمةٍ في سـبيل قيمها الوطنية والدينيّة قد يذهب كثيرٌ منه سدًى ما لم تُعْنَ تلك الأمّةُ بالقوة عنايتَها بالحكمة.

ثـم إنه ينبغي أن تجتمـع الثلاثة وتتّفق: الديـن والحكمة والقوة معًا، وإلا غدت القوة بلا دينٍ ولا حكمةٍ سيفًا مصلتًا للظلم والقمـع، والحكمـةُ بـلا دينٍ خداعًـا، والدينُ بلا قوة أمـرًا وجدانيًّا صِرفًا، فلا تتحقّق غايةُ وجوده كاملًا.

عوائدُ الكَرَم

سؤال: "كان كرمُ رسولِ الله ﷺ لحكمة، فلم تذهب ذرة من كرمه سُدًى، بل غدَتْ قوةً للإسلام"، فكيف ذلك؟

الجواب: الكرم فطرة وركن ركين لدى مفخرة الإنسانية ﷺ وعمق من أعماقه، والأصل أن كل ما عنده من صفة عادت عليه أضعافًا، ذلك أنه أحسن توظيفها وأحكمَها فالكرم والمروءة والجود والسخاء شيء واحدٌ وتشير إلى النقطة نفسها وإن تباينت بفروق يسيرة، وقد تخلّق ﷺ بأخلاق الله تعالى، وأتقن استخدامها ولم يفُته منها ولو ذرة واحدة؛ فضاعف الحق تعالى له ثواب التخلّق بها وأعادها عوائدَ مضاعفة.

أجل، استثمر مفخرة الإنسانية ﷺ هذا الخُلُق ففاق الخَلْقَ جميعًا، بل والملائكة أيضًا، لأنه مفخرة العالمين أجمع؛ وهذا واقعٌ لكل إنسان، أي كل ما يبذله المرء في سبيل الله سيعود إليه أضعافًا، والقرآن صريحٌ بهذا، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (سُورَةُ الأَنْعَام: ٦/١٦٠). أجل، لو أن إنسانًا أحسن مرةً فقط لضاعفها الحق تعالى أضعافًا كثيرة، وأعادها إليه كرةً أخرى، وهذا أقل الفضل الإلهي؛ فثمة مائةُ ضِعفٍ وألفُ ضعفٍ وبلا حساب،

ومردّ هذا إلى إخلاص العامل، بل قد تُضاعف أحيانًا آلافًا وفق عناية العبد بالعبادة والطاعة، بل مليونًا في أيام مخصوصة أو بنسبة تضحيته وإيثاره، وتطوّعه وصلته الوثقى بالله.

إذًا هذا ممكن لكل إنسان، ولكنَّ استثمارَ طاقة استيعابية على هذا النحو، وتوظيفها بشكل تام من خصائص سيدنا رسول الله ﷺ فحسب، حتى إنه ليس فيمن نسلِّم بمكانتهم من أنبياء عظام وأولياء كرام وأصفياء فخام من استطاع مطلقًا أن يستغلّ مثل نبيّنا ما وهبه الحق تعالى؛ لذلك لم يعودوا بالقدر نفسه من عطاء الحق تعالى.

والكرم والكرامة والإكرام: من جذر واحد، فالكرم هو أن يغدو حبُّ الخير مدارَ عناية الإنسان ومُسْتَمْسَكَه، أو أن يتملكه شعورٌ بفعل الخير للآخرين، وهذا الشعور لدى كلّ إنسان بقدرٍ تامًّا كان أم ناقصًا، لكن من الناس مَن يخمد هذا الشعور جذريًّا، ومنهم من ينمّيه بتفعيله دائمًا؛ ينمّيه حتى يصبحَ طريقُ الكرم جادته المطروقة، فيعيش جوَادًا ينثر لآلئ الكرم من حوله دائمًا دون أن يضلَّ أو يزيغ يمينًا أو يسارًا قطّ.

إن العطاء الإلهي والموهبة الربانية لمفخرة الإنسانية محمد ﷺ عطاء عظيم وموهبة عظيمة جدًّا بقدر رسالته التي سيحملها، ولا غرو فهو الإنسان المصطفى حقًّا؛ وقد أُعِدّ وجُهِّز وفقًا لعظم رسالته من نوى يمكنها أن تحمل هذه المسؤولية الثقيلة، ثم نمّى ﷺ تلك النوى التي أودعها الحق تعالى فيه، فجاء منها ما لا يخطر ببال.

إنه سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٢٣). أجل، لا يُقال له: "لماذا فعلت هذا هكذا؟"، ونعتقد في هذا الصدد: أن الله ﷻ تفضّل على رسوله ﷺ ابتداءً بكماليّاتٍ خاصّة لتمام علمه بأنه ﷺ سيستغلّها على وجهها الأمثل، وأنعم الله عليه في علمه الأزلي المحيط بعظمةٍ لا يبلغها بشرٌ ولا شيء من خلقه، فعاد هذا اللطف والإحسان الإلهي على مفخرة الإنسانية في حياته الخاصة وحياة الأمة الإسلامية سواء.

وكرمُه ﷺ من هذا القبيل، ومعناه أولًا عنده ﷺ: رغبةٌ في حبّ الخير أو الباعث على فعل الخير مع التهيُّؤ والأهلية لأن تصدر عنه الكرامة، فهو كلما أنفق وجاد أغدق عليه الله تعالى العطاء، ونسمي خوارق العادات عند الأنبياء معجزاتٍ لأنها تصديق لدعوى النبوة؛ والمعجزة: "أمر خارق للعادة، يُقْصَدُ بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله"، وهو ما كانت الماهية الأحمدية مؤهَّلةً له.

والكرمُ خصلةٌ محبوبةٌ في ذاتها، بل إننا نحب الناس لكرمهم، ومن لطيف الأمثال: "الإنسان عبدُ الإحسان"، فللكرم فاعلية نحقِّقُ بها مهامَّ كثيرة، ونجتاز بها صعابًا عسيرة.

والعربُ يومئذ أهلُ الكرم، وعُنِيَ الشعر الجاهلي منذ مطلعه بمشهدين مهمين: الكرم، والشجاعة. أجل، لقد عنوا بهما جميعًا منذ "امرئ القيس" حتى "طرفة بن العبد" إن صحت تلك الأشعار عنهما، فلقد كان ذلك من بقية دين إبراهيم عليه السلام يومئذ، ومما يُحكى ويرِدُ عن كرم إبراهيم عليه السلام الأسطوري:

أن الملائكـة قال بعضهم لبعض: اتخذ ربُّنا من نطفة خليلًا، وقد أعطـاه ملـكًا عظيمًا جزيلًا، فأوحى الله تعالى إلـى الملائكة: اعمدوا إلى أزهدكم ورئيسـكم، فوقـع الاتفـاق على جبريل وميكائيل، فنزلا إلـى إبراهيـم في يوم جمـع غنمه، وكان لإبراهيـم عليه السلام أربعة آلاف راع، وأربعة آلاف كلب، في عنق كل كلب طوق من ذهب، وأربعون ألف غنمة حلابة، وما شـاء الله من الخيل والجمال، فوقف الملكان فـي طرفي الجمـع، فقـال أحدهما بصوت عذب: "سُـبُّوح قُدُّوس"، فجاوبـه الثاني: "ربُّ الملائكـة والرُّوح"؛ فقال إبراهيم عليه السلام: أعيداها ولكمـا ربـع مالـي، ثم قـال أعيداها: ولكمـا نصف مالـي، ثم قال: أعيداها ولكما مالي وولدي وجسدي، فنادت ملائكة السموات: هذا هـو الكرم، هذا هو الكرم، فسـمعوا مناديًـا من العرش يقول: الخليل موافق لخليله.

"**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلائِكَةِ وَالرُّوحِ**"(٨٩): هذه الكلمات مختارةٌ بدقّـةٍ لتقديسِ الله تعالى وتسـبيحِه، وللتسـبيح ألفاظ دقيقـة، كما أنّ البلاغيين وفرسـان البيان يدركون أسـرار الشـعر وكلماته، ويقولون: "مـا أعذبهـا من كلمـات! لقد وقعـت من موسـيقى الشـعر موقعًا"؛ وهكـذا تـدرك معانيَ التسـبيح العميقـة أرواحٌ فريـدة عرفت الذات الإلـهيّة وانكشفت لبصيرتها، وهذا حال إبراهيم عليه السلام؛ لذا عجب كلَّ العجب لما سمـع تسبيحًا كهذا من الملائكة، فقال ما قال؛ فإذا كانت

(٨٩) صحيح مسلم، الصلاة، ٢٢٣.

علاقة الثروة بهذه المشاعر وثيقةً، فإنها لا تناقض النبوة بل هي دعامة مهمة جدًّا.

نعم، إن بقايا كرم إبراهيم عليه السلام لم تكن غريبةً على المكّيّين، فضربَ كلٌّ منهم بنصيبه منه بحسب حاله؛ غير أنه لا أحد منهم قطّ بلغ به كرمه أن ينافس سيدنا رسول الله ﷺ ولو قبل النبوّة؛ لأن رسول الله ﷺ آخر ثمار شجرة إبراهيم عليه السلام ومجمعها؛ فكأنه ﷺ وَرِثَ كرم إبراهيم عليه السلام كلَّه؛ وعظُم هذا الكرمُ لا سيما بعد الرسالة، وكأنه تجسّد على الأرض؛ لا سيما في شهر رمضان كان أجود بالخير من الريح المرسلة كما روت السيدة عائشة رضي الله عنها[٩٠]؛ فما كان يبيت وعنده شيء يأكله ذو روح.

ولقد كانت مهمة تبليغ الرسالة له ﷺ مثاليةً عظمى، بل معشوقه؛ حتى إنه يكاد يموت حين يعوقه عن أدائها عائق، فيخفف الله تعالى عنه ويخاطبه مواسيًا: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (سُورَةُ الْكَهْفِ: ٦/١٨)، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٣/٢٦).

لذا بذل سيدنا رسول الله ﷺ كل ما وهبه الحق تعالى في سبيل دعوة الحق، أي قدَّم كل ما أعطاه الله لإحياء دينه، لقد وهبه إقدامًا فائقًا، فحطم ﷺ بهذا الإقدام كل غارة يجب تحطيمها، وتَخلَّق باسم الحق تعالى "الجواد" على أكمل وجه؛ لكنه لم يبدد طاقاته هنا وهناك بلا حساب؛ بل وضعها في طريق الحقّ بحيطةٍ وحَذَرٍ على نحوٍ لم

(٩٠) سنن النسائي، الصيام، ٢.

يُعهد من قبل، ونثر ما أنفقه نثر البذور المكفورة في باطن الأرض، فأنبتت كلُّ حبةٍ نثرَها سنبلةً بل سبعَ سنابل.

وكان لسيدِنا رسول الله ﷺ وأمّنا خديجة ﵂ ثروةً عظيمةً في فترةٍ ما؛ وما أتت عليهما سنتان أو ثلاث من البعثة وفي بيتهم شيء يُؤكَل؛ لقد أفنَتِ الدعوة تلك الثروة العظيمة، إذ أُنفقت على مآدب الضيافة، أو تأُلُّفِ هذا وتطييب قلب ذاك والحدِّ من النزاعات؛ استُهلكت تلك الثروة العظيمة، وما مضت على مفخرة الإنسانية محمد ﷺ خمس سنوات أو ست حتى غدا يربط على بطنه حجرًا لئلّا يشعر بالجوع؛ أنفق ما أنفق في موضعه بحكمةٍ مبرمة، فألّفَ قلوبًا كثيرة إلى الإسلام، وكشف عن سرِّ "الإنسانُ عبدُ الإحسان" بكلِّ ما فيه من جاذبية وسحر.

كَشَفَ عن ذلك حتى إنّ من عميت أعينهم عن فضائله وأمانته ووفائه سلَّمُوا قطعًا بكرمه ﷺ، وهكذا كان حتى آخر عمره؛ وهذا الخُلُق النبوي جعل الناس يومئذٍ يوقنون أنه قد يبلغ الإنسان هذه المنزلة من الكرم بتوكله على الله فحسب، وتلك أَمارة النبوة.

أجل، هكذا كان سيدنا رسول الله ﷺ يدخل القلوب قلبًا قلبًا، وينال بهذا الكرم العُجاب ما لم ينلْه بصفات الوفاء والصدق والأمانة. أجل، فكلُّ إنسانٍ تعرّف إلى واحدٍ من جوانب عظَمة النبيّ ﷺ أذعن له ورضيه، فقد أحسن ﷺ توجيهَ كرمه، واستثمره حتى بدت كل حبة من ثروته كأنها سنبلة أنبتت سبع سنابل، بل سبعين سنبلة، بل سبعين ألف سنبلة، فحَسَبَ كل مسألة على هذا النحو في عالم التخطيط

والمشـروعات، ونَثَرَ ثروته هكذا كالبذور، وسرعان ما أثمرت بعناية الله وكرمِه سـنابل، شَـمَخَتْ وتفتحت أزهارها حتى صارت الأرضُ كلُّها ربيعًا.

وهذا شأن الأبطال الفدائيّين الذين نذروا حياتهم في سبيل رسالة الإحياء في يومنا هذا، أصحابِ رسالة مهمة، ورثةِ دعوة النبوة.

لقد أحيا سيدُنا محمد ﷺ شعور الكرم في عصره، وبلـغ به أسمى درجة، فعلى ممثّلي دعوة النبوة في يومنا هذا أن يقتدوا به في ذلك.

دلَّ هذا أنَّه يمكن استثمار كلّ ما وهبنا الله ﷻ في الدعوة وغايتها السامية مثلما فعل مفخرة الإنسانية، دون أن نضيـع ولو عود زرنيخ؛ وأن نعجّـل حركةَ التطورات الإيجابيـة التي نصل إليها وتخدم ديننا. أجـل، إنَّ الكرمَ آتى وسـيؤتي ثمارًا مهمّةً جدًّا لمسـتقبل هذه الأمة، وقيّمةً وجديرةً ببذلِ كلِّ تضحية.

مجتمع المعرفة

سؤال: ما معنى "مجتمع المعرفة" في هذه المقولة: "إنَّ احتضانَ المستقبل لا يكون إلا من مجتمع المعرفة"؟

الجواب: أهميّةُ العلم حقيقة يقينيّة منذ القدم، أليس العلم هو الذي يميز الإنسان ويفضّله على غيره من المخلوقات؟ وهو الحكمة من سجود الملائكة لآدم عليه السلام -أيًّا كان معنى هذا السجود الانقياد له أم الإقرار بعظمته-، لقد فضّل الله جل جلاله آدم بتعليمه "الأسماء"، ويستحيل عقليًّا الفصل بين الأسماء والمسمّيات، وهذا يعني أن آدم عليه السلام عُلِّمَ حقيقة الأشياء، وأُوتِيَ سيدُنا رسولُ الله ﷺ بمعنًى ما الخصوصية نفسها، والفرق أنّ ما أُعطيه سيدنا آدم عليه السلام إجمالًا أُعطيه رسول الله ﷺ تفصيلًا؛ فكان آدم عليه السلام يعرف الأسماء وفقًا لمستوى أمته ويُنشئ ويقدِّم تركيبات ملائمة لهم.

أجل، علّم الحقُّ تعالى آدمَ عليه السلام الأسماءَ والمسمّيات وحقائق الأشياء؛ ثم آتاه القدرة على التدخّل في الأشياء والحوادث، فانظروا من هذه الزاوية إلى الخلافة التي أُوتيها، وقولوا: "إنّ الخلافة هي الإذن بالتدخل في الوجود من الله صاحب الوجود"، ولا يمكن أن تتحقّق مزيّة كهذه إلا في ضوء العلم فحسب.

والتدخّل في الأشياء واقع اليوم أيضًا، لكن له آثاره السلبية لأنه يقع من أيدٍ دخيلة، آثار لا قبل لنا بدفعها، ولهذا نواجه كثيرًا من المشكلات، أمَّا النهج النبوي فلم يكن فيه شيء من هذا.

أجل، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (سُورَةُ البَقَرَة: ٢/٣١)، إن ما أُعْطِيَه آدمُ عليه السلام هو إما العلم نفسه وإما أصلُ العلم وهو الحقائق الثابتة التي يصل إليها الإنسان ببحوثه ودراساته وذهابه وإيابه الدائبين من السبب إلى النتيجة ومن النتيجة إلى السبب.

نعم، العلم هو ما به فُضِّل آدم عليه السلام على الملائكة، وترقَّى هذا العلمُ أكثر عند نوح عليه السلام، وتسارع أكثر عند إبراهيم عليه السلام، وتضاعف أكثر عند هود وصالح عليهما السلام، ثم بلغ الذروة، وفُصِّل تفصيلًا تامًّا عند مفخرةِ الإنسانية محمدٍ ﷺ؛ إنه خاتم النبيين، فينبغي ألا تُعارض ألبتة الاكتشافاتُ والنتائج الحديثة التي ستُظهر ما أُنزل عليه من الكتاب أو السنة.

ولنا أن نقول: إن الله جل جلاله منّ علينا بأن كلفنا بالشريعة الغراء كي نجول بسهولة في مدارج كتاب الكائنات الذي كتبه بقدرته وإرادته ومشيئته.

نعم، أقام القرآنُ جسورًا بين الإنسان والوجود، فنجا بها الإنسان من استيحاش الوجود؛ فصار يرى الوجود وكأنه "أنيسه وجليسه"، ومن هذا الوجه لنا أن نقول: ما ترك سيدنا رسول الله ﷺ شيئًا في الوجود إلا بيَّنه منذ أربعة عشر قرنًا، ولن يأتي العلم بما يعارضه

أو يخالفه مهما تقدم وتطور إلى يوم القيامة؛ وما ينبغي أن يفهم هذا كما وهم بعضهم بأنَّه ﷺ أخبر من قبل بكل ما تم اكتشافه في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والأحياء والتشريح، فما نريد قوله هو أنه ليس في هذه العلوم ما يعارض ما جاء به مفخرة الإنسانية ﷺ، بل إنها تعزِّزُه وتؤكّده، وهذا يكشف أهمية العلم، ويتيح لنا أن نقول: "كل شيء ينبني على العلم"(٩١).

أجل، إنَّ مصير المستقبل بيد العِلْم بنسبةٍ ما؛ إذ يتعذَّر تحقيقُ أية نتيجة بدونه، بل إن أهميته باتت مطَّردة بعولمة العالَم، لذا دفعنا الثمن غاليًا كثمن تخلفنا عن الثورة الصناعية الغربية حين قامت في فترةٍ ما، ولطالما عانينا -وما زلنا- من أضرار ذلك، ولم نصحُ حتى الآن من صدمة التخلّف عن ثورة التكنولوجيا، ولا ريب أننا إن عجزنا عن بلوغ ما بلغه العالم اليوم، وفاتنا الرَّكْبُ مرة أخرى فهيهات أن يُتيح لنا أعداؤنا الفرصة ولو أن نرفع رؤوسنا.

وهذا يوجب علينا أن نؤمن بالله تعالى إيمانًا قويًّا، ونوقّر سيدنا رسول الله توقيرًا عظيمًا، ونستوعب كل دقائق الإسلام الدين المبين، وأن نحيط بالحياة كلّها أيضًا؛ أي ينبغي أن نملك أفضل مراكز البحوث، وأشهر المؤسّسات العالميّة مثل "ناسا"، وأن نبني نحن المدن في الفضاء، وإلا خرجنا صفر اليدين من ساحة التوازنات الدولية، فتُولَد الأحداث العالمية وتتفاقم ضدّنا.

(٩١) بديع الزمان سعيد النُّورْسي: الكلمات، الكلمة الثالثة والعشرون، المبحث الأول، ص ٣٤٥-٣٤٦.

إن تعجّلْنا فربما أضررنا في مسألة ينبغي فيها التأني والحركة بمنهج ونظام؛ ويستحيل القول بأنّه تم إعداد أَكْفَاء في أيّة ساحة بعد.

وأشير استطرادًا إلى أنه وجبت مراجعة الفقه الإسلامي في عصرنا، وتقنينه تقنينًا يلبّي حاجات العصر، ثم تنسيقه وتنظيمه، والمؤلم أنَّه لا يمكن الحديث عن مؤهلين لهذا العمل في الكفاءة أو العدد؛ وإعدادهم يستغرقُ فترة زمنية معينة قطعًا؛ هذا وينبغي حتمًا تحميلُ الفقه كله على الحواسيب، وهذا بلا ريب يحتاج وقتًا طويلًا جدًا، فلا يكفي تحميلها؛ بل لا بد من ابتكارات آلية للاستفادة من تلك المعلومات، وأكرّر مضطرًّا أنه من المؤلم خلوّ عالمنا من هيئات قادرة على تحقيق هذا العمل كما يجب، فكما لا ننكر أنا لا نملك هيئات مؤهلة لإدارة "ناسا" ونحوها من مؤسسات البحوث الكبيرة جدًّا، وهكذا الأمر في العلوم الإسلامية لا بد أن نعترف بنقصنا في هذا المجال، ولا مبالغة في هذا ولا هو تحقير للموجود، بل هذه صورة وتقرير عن الواقع.

إن من يتطلعون لقضايا عظيمة بدون كفاءة قد يسوقون المجتمع إلى إخفاقات متوالية باسم الإسلام، وبتصرف خاطئ كهذا قد يوقعون به هزائم لا تُقاوم؛ فغالبًا يعسر استرداد ما ضيعناه من فرص في حالٍ كهذا، ولن نحقق شيئًا في أية مسألة ذات قدر بمناهج غِرَّة، وإذا لم نعدّ ونربِّ أناسًا مثل: أبي حنيفة وأبي يوسف في الفقه؛ والبخاري ومسلم في الحديث، والسيد الشريف الجرجاني والتفتازاني في علم الكلام، والإمام الغزالي والإمام الرباني والأستاذ بديع الزمان في

الأخلاق والتصوف، فإنّ القيام بأية معالجة للمجتمع خطأٌ تنتج عنه مثالب وأخطاء تعقبها نكساتٌ لا تقوم لنا بعدها قائمة.

قد يُقال: "لِمَ هذا التيئيس؟" فأقول -وسأُسأل عن ذلك أمام الله تعالى- إن ضميري مطمئنٌّ جدًّا، ومستعدّ للحساب؛ لأنها مسألة لا هَزْلَ فيها ألبتة، ولا مجاملة فيها للهازلين.

أجل، ولو أجملنا لقلنا كما نصَّ السؤال "احتضان المستقبل لا يكون إلا من مجتمع المعرفة"؛ إن الأمر كذلك؛ لأن العلم هو استيعاب ما تنطق به الأشياء والحوادث، والشعورُ بأثر الأوامر التكوينيّة وما تعرضه وتكشفه لنا، وحدسُ مقاصد الخالق السامية؛ فالمخلوقُ المؤهَّلُ للحكم على الأشياء يرى ويقرأ ويدرك ويتعلّم، ثم يبحث بوسائل تذلّل الحوادثَ لينظمها في كلامه، ولهذا سخّر الخالق الجليل الأشياءَ للإنسان فأذعَنت له كما أذعن الإنسان نفسه بها لخالقه، وصار عبدَه طَوعًا.

ومن الناس مَن يعتقد أن إدارة العلم للعالم تُفرز كوارث منها أن يغدو الإنسان آلة والمجتمع آليًّا، وهذا خطأ قطعًا؛ إذ لا يتصوّر وجود مستقبل بلا علم، كما لم يكن ماضٍ بلا علم، ذلك أن نتائج كل شيء رهنٌ بالعلم، ولا شيءَ يمكن أن يقدِّمَه العالم للإنسان بدون علم.

نعم صار الإنسان مجرّدَ آلة في بلادٍ كثيرة، فلا مشاعر إنسانية ولا صحة ولا فضائل إنسانية، كلّها اندرست، لكن من الجور تحميلُ هذا

القصور على شـمّاعة العلـوم والتكنولوجيا؛ فـوزره يعود إلى علماء تنصَّلـوا مـن تحمّل مسـؤولياتهم؛ فلو أَدّى رجال العلـم الذين وعوا المسـؤولية الاجتماعيـة ما هو منتظـر منهم، لَمَا وقعـت اليوم معظم هذه الوقائـع المقلِقة.

الربانيّون ومجالس العلم والذكر

سؤال: تقولون: "لمجالس العلم والذكر قَدْرها في خدمات الربانيّين وحياتهم"، ما معنى هذه المقولة؟

الجواب: نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الربانيّين، وأن نسير على دربهم في كلِّ ما نأتي ونذر، فتلك أفضال الله ﷻ يؤتي منها ما يشاء لمن يشاء، فلنستشفع بعجزنا وفقرنا راجين رحمته الواسعة، أي إننا إن كنا فاعلين فإنما نلتمس ثمرة الخدمة بافتقارنا لا بعلمنا وعملنا؛ اللهم ارحم عجزنا وضعفنا، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين إلى أن نلقاك.

تعلمون أن سيدنا المسيح عليه السلام بشّر بنبينا ﷺ وصحابته وسماهم "القِدِّيسِين"[٩٢] أي الربانيين، فالربانيون مطهَّرون، وهم من لم تدنسهم الدنيا، ولم يركعوا لها قطّ ولم تلطّخ ثيابهم بأدنى قذر وإن عمت البلوى.

ولا يلزم من هذا أنهم معصومون عن الخطإ؛ فابن آدم منذ بَدْءِ نشأتِهِ خطَّاء، فكأنه والخطأ توأم؛ والحقّ أن هذه سنّة إلهية ولن تجد

(٩٢) الماوردي: أعلام النبوة، ص ١٥٠.

لسنة الله تبديلًا؛ وفي هذا يقول رسولُ الله ﷺ: "**كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ**"(٩٣). أجل، كلٌّ يخطئ لكن لا بد من رفع هذا الخطإ وتخطيه كما أشار ﷺ بقوله: "**وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**"(٩٤)؛ أي أفضل مَن يخطئ هو من يُتْبِع السيئة بتوبةٍ تمحوها.

ولا نقصد بقولنا: "مُطَهَّر" من لم يرتكب إثمًا مطلقًا؛ بل نقصد أنهم وقفوا حياتهم ونذروها ابتغاء مرضاة الحقّ تعالى؛ فهم يعلمون كيف ينهضون إذا ما عَثَروا، ويبحثون عن سبل التقرب إليه سبحانه إذا ما ابتعدوا عنه، ويبتغون رضاه تعالى ليل نهار، ويضطلعون بكل ضروريّ لإعلاء كلمة الله تعالى أي ليرتفع اسم الله الجليل كَرايةٍ خفّاقة في أنحاء الأرض كافّة، ويضحّون بكلِّ شيءٍ في هذا السبيل.

قد تزلُّ أقدامهم، أو يبعدون عن مساراتهم الخاصة، لكنهم يمتازون عن غيرهم بأنهم سرعان ما ينهضون مما غلبتهم عليه أنفسهم، إنهم ما إن يزلّون هكذا حتى يقولوا مثلما قال سيدنا آدم عليه السلام: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ٢٣/٧)، أو مثلما قال سيدنا يونس بن متى عليه السلام: ﴿**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ: ٨٧/٢١)؛ ويفرّون من ظلم النفس إلى الحق تعالى. أجل، إن الربانيين يقدسون الله دائمًا وينزهونه، ويردون عقبى كل شيء إليه، فهم بهذا يعرفون كيف يستثمرون كل أحوالهم؛ ليستنزلوا رحمة الحقّ تعالى لأنفسهم، ويستمطروها في أرضهم، أو قل: إنّهم

(٩٣) سنن الترمذي، القيامة، ٤٩؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٣٠.

(٩٤) سنن الترمذي، القيامة، ٤٩؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٣٠.

يقدّمون عجزهم وفقرهم وضعفهم وحاجاتهم بقولهم: "لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"؛ ويدعون الله قائلًا: "إنّك أعلم بحالي، وغنيٌّ عن سؤالي، فامنن عليّ بما أنا مفتقرٌ إليه".

الربانيُّ هو أيضًا من يستمسك بالطاعة، ويفرُّ من المعصية، ويكره أن يعود في الإثم بعد إذ نجَّاه الله منه كما يكره أن يُقذَف في النار، فاستبدال التوحيد بالشرك أسمى المُثُل ومنتهى الغايات لدى إنسان كهذا؛ لذا خصَّ سيدنا المسيح عليه السلام باسم "الربَّانِيّين" أمّة محمد ﷺ أقوى الأمم وآخرها، التي تُطهّر الأرض من الشرك ورجسه.

وللربانيين عهدان: أحدهما التجلي الأصلي والظهور الكلي، بدأ بسيدنا محمد ﷺ، وبلغ الذرى في فترات تَترى بمددٍ من العهد الأول فغدا دولًا ثم خلافة ترفرف رايتها على سلطنة الدول ومُلكها؛ والآخَر: أن يكون المسلمون في آخر الزمان كما بشّر به الصادق المصدوق في منزلتهم التي ينبغي أن يكونوا عليها.

وبهذا يضرب رجال البعث الثاني في آخر الزمان بسهمٍ من تسمية أمة محمد ﷺ "الربَّانِيّين"؛ فالربانيّون في العهد الأول جاؤوا إلى الدنيا فأدَّوا ما عليهم، ثم رحلوا كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ (سُورَةُ البَقَرَة: ٢/١٣٤)؛ وصلتُنا بهم أن نذكرهم بالخير، وننمّي آثارهم باستغلالها واستثمارها، والأعنى في هذا حسنُ الانتفاع من الربانية الثانية.

وإذا ذُكِر الربّانيون، ذُكِر أربابُ حركة إحياء شاملة حيثما حلَّت أحيَتْ كأنّها الخضر عليه السلام، وتنهض مجدَّدًا برؤيةٍ مثاليّة سامية كخدمة الإنسانية والإيمان في آخر الزمان؛ حتى عَدَّ بعضُهم ظهورَ المهدي وجهًا من وجوه حركة الإحياء هذه.

ولا ريب أنَّ رسالات الأنبياء جسدت أكبر حركات الإحياء وأعظمها، وهذا ما دلّت عليه الآية الكريمة: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٢٤). أجل، أجيبوا الدعوة لتُبْعَثَ فيكم من جديد الروحُ والمعنى والقلب والوجدان والحسّ والعاطفة والفكر والمنطق... والخلاصة أنه بعثٌ في كلِّ شيء، وبهذا يمكن القول: إنَّ أوسع حركات الإحياء نطاقًا تجسدت في رسالات الأنبياء، ثم خلَفهم عليها الربّانِيّون.

وأَهَمُّ ميزة للرّبانيين هي تتبُّعُ مجالس العلم والذكر، ولمجالسهم هذه رؤيةٌ مثالية وغاية سامية، أي إن مجالسهم ليست عادةً، بل لها هدفٌ وغاية؛ فينبغي بحثها ودراستها بخصوصيّة أكثر، وما ينبغي أن تُسوَّى باجتماع الناس على مطعمٍ أو مشربٍ في مقهى أو مسرح أو رحلة.

إنّ مجالس العلم والذكر رفقةٌ يتذاكر فيها المشاعر والأفكار قومٌ يستهدفون التعمّق فيهما، وفي الحديث: "**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ**

فِيمَنْ عِنْدَهُ"(٩٥)، وفي هذه الرفقة تتحد المقاصد والرؤى دائمًا؛ فتخفق القلوب كلُّها بالقضية عينها، وبالحسّ والشعور نفسه، فتتآلف الأرواح بهذا التعارف كأنها روح واحدة: ترِدُ الانفعال نفسه، وتتنعّم وتتألم بنعيم أختها وألمها، وعلى هذا فليس من هذه الرفقة في شيءٍ اجتماعُ من يقلّون عند الفزع، ويكثرون عند الطمع.

إذًا هيهات أن نبلغ أفق الرفقة الحقيقية إلّا إن فدينا وطننا وغايتنا فاجتزنا معًا -دون أن تُضَارَّ رفقتُنا- معضلاتٍ عظيمةً يستوجب حلُّها عزمًا نبويًّا وصبرًا جميلًا، ولا يضيرنا عندئذٍ أن نستأنف خطّتنا ونظامنا -ولو فسَدا- كل عام سبعين مرة.

ولا بقاء لأي رفقة في الآخرة، ولا قيمة لها في الدنيا إن لم يكن لها أثرٌ في معرفة الإنسان نفسَه، وتكاملِه مع ذاته، وبلوغِه رضا الله تعالى، وفي سقوطه في التراب بذرةً لتنمو وتثمر في الجنة.

وفي هذا يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ، أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ... فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ، فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ**"(٩٦).

وكم جاء في الكتاب والسنّة أنَّ استمرار الرفقة في الآخرة رهنٌ بالرفقة في الدنيا، ويعزز هذا بإيجازٍ جامعٍ حديثُ: "**المَرْءُ مَعَ مَنْ**

(٩٥) صحيح مسلم، الذكر والدعاء، ٣٨؛ سنن أبي داود، الوتر، ١٤.

(٩٦) سنن النسائي، الجنائز، ٩.

أَحَبَّ"(٩٧) وكذا آية: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (سُورَةُ النِّسَاءِ: ٤/٦٩).

إنَّ رفقتنا رفقةٌ ثريَّةٌ منفتحة على أبعاد شتى، وذاتُ معان عميقة جدًّا، أهلها ذوو شعور واحد ووجهةٍ واحدة ودعوة واحدة يتقاسمون الأشياء نفسها، وتتعمق رفقتهم بالبحث في الأمور الإلهية، وسيرةِ مفخرة الإنسانية، والتوحيدِ والتهليل والتسبيح والتحميد؛ والنصيحةُ جانبٌ حيويٌّ مهمّ جدًّا فيها؛ إنها رفقة أخرويّة لا يحول القبر دونها، ولا يفرقها الموت. أجل، لا شيء في الدنيا مطلقًا يستطيع أن يمنع رفقةً قامت على أنه: "لو كان أحدنا في الشرق والآخر في الغرب، لو كان أحدنا في الشمال والآخر في الجنوب، لو كان أحدنا في الآخرة والآخر في الدنيا، فإننا جميعًا معًا"(٩٨).

والنصحُ والتذكيرُ أحدُ الأبعاد الثريّة الرحبة لهذه الرفقة، فالأخ يذكّر أخاه إذا أخطأ كما نذكّر مَن يمشي على الجليد بقولنا: "إياك، إيَّاك! فأنت على جليد قد تزلَق به قدمك، فتقع!"؛ لذا عُدَّ من ضروريات هذه الرفقة القيامُ بما تقتضيه الأخوة والوفاء بتذكير صديق أشرف على الهلاك، والإمساك به، والحيلولة دون سقوطه كأن نقول: "إياك، إيّاك! فزلة الدنيا قد تزل بك في الآخرة".

(٩٧) صحيح البخاري، الأدب، ٩٦؛ صحيح مسلم، البر، ١٦٥.

(٩٨) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: سيرة ذاتية، ص ٦٧٤؛ الملاحق، ملحق أميرداغ -١ ص ١٦٠؛ الشعاعات، الشعاع الرابع عشر، ص ٥٣٥.

تحقَّـقَ هذا النوع مـن الرفقة والصداقة والأخـوة والصحبة على أكمـل وجـهٍ في عهد رسـول الله وفـي "أصحاب" رسـول الله ﷺ، إن الأخـوّة هـي الآصرة بينـه ﷺ وبين الصحابـة الكرام الذين يتنفّسـون رحابـةَ صحبته، ويسـتفيدون مما فيها من وعظٍ وإرشـاد، ويسـلكون بالذكر والفكر سـبيل التقرب إلى الله تعالى، ويدركون فلسـفة الوتيرة الأبدية للصداقة.

وفـي الكتب السـماوية القديمة إشـارات إلـى أن المواعظ ركن ركيـن مـن البعث في آخر الزمان، فمجالس ملؤُها الوعظُ والإرشـادُ لهـا قدرُهـا، لها لما لِلَقبِ "ناصح" من أهميـة لدى رجال إحياء هذه الأمة في آخر الزمان.

أجـل، لا يؤخـذ بما في الكتب القديمـة مطلقًا، بل هو محل نظر إلا إنْ عارض الكتابَ والسنةَ فتُردّ، لأنّ رسول الله ﷺ خيّرنا فقال: "**لَا تُصَدِّقُـوا أَهْـلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَ﴿قُولُوا آمَنَّا بِـاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾** (سُورَةُ البَقَرَة: ٢/١٣٦)"(٩٩).

(٩٩) صحيح البخاري، الشهادات، ٢٩.

اللطف الجبري وأبعاده

سؤال: كثيرًا ما تذكرون "اللطف الجبري" في أحاديثكم، فما هو وما أبعاده؟

الجواب: اللطف الجبريّ: النعم التي يتفضل الله تعالى بها على عبده ابتداءً ولا إرادة للعبد فيها ولا اختيار، وكلّ ما للعبد لطف جبريّ؛ ابتداءً من وجوده بعد أن لم يكن شيئًا مذكورًا، إلى خلقه إنسانًا لا حيوانًا أو نباتًا، وولادتِه سليمًا في بلد مسلم... أي يطلق اللطف الجبريّ على النعم التي لا تُحصى من ألفها إلى يائها.

أما أبعاد اللطف الجبري فالإيمان رأسها، فلنُعنَ به، إنه فضل الله على الناس؛ فهو لطفٌ جبريٌّ وعناية إلهية، فلنبحث فيه في ضوء هذا؛ ويبرهن على ذلك أننا قد نرى من يقول "لا إله إلّا الله" في ظلّ الكنيسة، كما نجد عند المسجد من يقول "بلغتُ السبعين وأنا ملحد، فلن أقول بعد هذا كله إنني مؤمن"، أو "لو شختُ وخرفتُ، وقلت في الإيمان قولًا، فحذارِ أن تصدقوها أو تأخذوا بها".

قلنا بدايةً إن الإيمان رأسُ اللطف الجبريّ. نعم، تأمّلوا من حولكم، فكم من عاقلٍ يطوّف في الشوارع على غير هدًى، وكم من أشياء حرَمَهم منها زيغُهم السابق، ورؤيتهم وتقديرهم الخاطئ

للمسألة، بل احدودبت ظهورهم من ذلك وما اعتدلت، وعجزوا عن رؤية الحق، بل تعذرت عليهم رؤيته؛ ما أصعبَ أن يعتنق الإسلامَ من قضوا أعمارهم في أوهامٍ وفلسفات خاطئة؛ فتشدّقوا بماركس ولينين وإنجلز وماو، لا سيما الروّاد، ما أصعب أن يقولوا لجماهيرهم بعد أن أبعدوا النُّجعةَ في مسارات متعرِّجة: "قضينا أعمارنا في وهمٍ، وضللنا فيما وجّهناكم إليه".

لقد عجز من هم أعقلُ منّا عن العثور على جادّة الإيمان الصحيحة، وتخبطوا في أودية الحيرة والغفلة؛ لذا ينبغي أن نبحث اهتداءنا إلى الإيمان في ضوء اللطف الجبري؛ فأرواحنا قرابينُ لربٍّ يعرجُ بنا إلى هذه القمم الشامخة.

ومن اللطف الجبريّ أننا تعرَّفنا على منهج يرشدنا إلى غاية علوية سامية وهي إعلاء كلمة الله وتبليغها إلى القلوب بطريقة وسطية توحّد أفراد المجتمع كافةً، وهذا المنهج اقترح على عالمنا الفكري أسسًا أزالت من دائرة اهتمامنا التعصب والتطرف، ولطالما ذكَّرنا وأكَّدَ أنّ علينا أن نتقبّل كل من يقوم بالخدمة أيًّا كان، ومهما كان، وأن نقف له إجلالًا وإكبارًا، ولا نقدح فيه ألبتة، وأن نقدر قدر كل من يخدم الدين مثل المشايخ العظام في بلادنا أمثال الشيخ سليمان أفندي، والشيخ سامي أفندي، والشيخ أسعد أفندي، والشيخ محمد أفندي، والشيخ محمود راشد أفندي، والشيخ الحاج خلوصي أفندي...[١٠٠]

(١٠٠) مشايخ أكبر الجماعات الدينية والطرق الصوفية في تركيا.

أجـل، لطالمـا ذكَّر هذا المنهـج وأكَّد أنّ علينـا أن نبتهـج بأعمال البر والنجاح لهؤلاء العظام الذين نسجوا المشاعر الإسلامية والفكر الإسلامي على منوال الإسلام في العالم كلّه، وأن نحيّيهم أيضًا.

أجل، إنّ الإسـلام نظامٌ إلهي يسـتوعب النـاس جميعًا، ويقبلهم بخصائصهـم كلّهـا: بمشـاربهم وأذواقهـم ومذاهبهـم وأحاسيسـهم ومشاعرهم...، ونحن من نجمّد هذا النظام، ونقدّمه صلدًا صُلبًا نحن مَن ضيَّقنا واسعًا وقلَّصْناه، وصغّرناه حتى وهِمَ بعض الناس أنه دينٌ لا يعترف للآخرين بحقِّ الحياة.

هـذا الفهـم العقيم والأفق الضيق أفـرز تصرفاتٍ غدت منذ زمن بعيـدٍ عائقًا عن فهم الإسـلام الرحيب الفسـيح، وزَجّت بآخرين في مخاوف عدّة.

ولهـذا نماذج شـتّى يغَصُّ بهـا تاريخُنا القريب، وإليهـا مردُّ جلِّ مخـاوف الآخرين منـا؛ إذًا أليس من واجبنـا أن نمنـع تجدُّدَ حدوث شـيء كهذا في عصر أُثيرت فيه العواصف والزوابـع، واتحد الأعداء في الداخل والخارج تحدوهم رغبة في الحكم على المؤمنين بالعدم والفنـاء؛ إننـا نحتاجُ اليوم أكثر مـن أيِّ وقت مضى لأن نطبق نصيحة بديـع الزمان في هذا الخصوص.

وللطفِ الجبريِّ بُعْدٌ آخَر يُبحث هنا، وهو: تجسيد الروحِ والفكرِ اللذين تمثَّلا في سـيدنا الحسـن بن علي ﷺ[١٠١]. أجل، قد تُدْرَأ في

(١٠١) إشارة إلى تنازل سيدنا الحسن بن علي ﷺ عن الخلافة درءًا لنشوب نار الفتنة بين المسلمين.

القريب العاجل فتن كثيرة عند التزاحم على المنافع والمصالح باستغناء فدائيين يؤثرون على أنفسهم، ويجسدون الروح الحَسَني؛ ففي مناخ النضال تدافُعًا على المنافع ترى الواحد منهم يدفع كلَّ شيء بظهر يده، ويمضي حياته في عزلة عن الدينا قائلًا: "لا حاجة لي بهذا".

هذا الاعتقاد وهذا الفكر لطف وتفضيلٌ إلهيّ ينفع مجتمعنا؛ فقد قطع الفدائيون أنهم لن ينازعوا مسلمًا أيًّا كان السبب، ودستور حِراكهم: "لا حقَّ لمن يثير الشحناء في زماننا حتى وإن كان محقًّا"، وإذا مرّوا بمن يثيرون الشحناء مرّوا كِرامًا.

وأجلّ أبعاد اللطف الجبري ألا تكون لنا إرادةٌ في هذه النعم وأوجه الإحسان الغفيرة التي منّ بها ربنا علينا؛ والإرادة في أهمّ المسائل شرطٌ عادي لا غير، ويمتنع أن يقال إن لإرادتنا تأثيرًا في هذه النعم.

لقد كرَّمَنا اللهُ بأن خلقنا من بني آدم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾ (سُورَةُ الإِسْرَاءِ: ٧٠/١٧)، وليس هذا فحسب، بل خَلقَنا في مناخٍ يسمو بالإنسان إلى درجة "الإنسان الكامل"، وأحسن إلينا بألطاف خاصة، أي إنّه منحَنا العواملَ والقواعدَ التي سترفعنا إلى هذه الآفاق السامية، ولا شك أن هذا كله إحسانٌ ولطفٌ لا تطوله إرادتنا.

إذًا على الإنسان أن يعدّ هذه النعم أمانةً قيمةً أودعت عنده، لا كمن صادفها في الطريق، ثم ليبذلْ وُسعه لتستمر وتدوم، فعلى من حظي بنعمة أن يحيطها بوعي وشعور خاصّ، وأن يحافظ عليها، وأن يُعنَى بها أيّما عناية كيلا تضيع.

أجل، لا بد من معرفة قدر هذا كلّه وقيمته، ولا بد من مقابلة نعم الله الغفيرة بالشُّكر.

قوة الإيمان

سؤال: كيف نوفَّقُ إلى خِدمة الإسلامِ مع ما يُناصَبُهُ من عداءٍ عالميّ، وما هو طريق الكفاح؟

الجواب: إن الظروف الحالية تجعل للنضال والكفاح معنى آخر، ومستندنا في هذا فهم بديع الزمان نفسه، يقول: "الظهور على المدنيّين إنما هو بالإقناع لا بالضغط والإجبار"[١٠٢]؛ إذًا نتوقع أن تُسْتَثمر الأرضية الديمقراطية القائمة والحقوق والحريات الديمقراطية، ويختارَ الناسُ الإسلام بمحض إرادتهم مثلما اختاره سادتنا خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة ﷺ، ويقيننا أن هذا الطريق هو الأسلم والأَدْوَم.

أما عن القسم الأول من السؤال فإن الله الذي أخرج الأشجار السامقة من نواة صغيرة، ينشر رحمته ودعوته القدسية في أنحاء المعمورة كلّها مستخدمًا وسائل بسيطة جدًّا، وإن في قولنا "وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" بعد الصلوات الخمس إعلانٌ بأن قدرته وسعت

(١٠٢) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: سيرة ذاتية، الحياة الأولى، ص ١١٦.

كل شيء، ولا شكّ في هذا ولو مقدار ذرة؛ فلنكف عن الكلام في المسلَّمات.

أجل، على هذا الفهم تربينا، ولما قيل لواحد من أهل القلب: "اُذكُر الله" قال: "وهل نسيته لأذكره؟!"، وقد قرّرْنا بدايةً أن مسألتنا هكذا.

أجل، إنَّ لنا أفقًا فكريًّا: "إننا فدائيّو المحبة، ولا وقت لدينا للخصومة"(١٠٣)؛ لا ذِكْرَ في أحاديثنا لجرحى أو قتلى السيوف والخنجر والقوس المشدود والسهم المرسل، وإنما نتحدث عن البعث والإحياء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (سُورَةُ الأَنْفَالِ: ٨/٢٤)، وندعو الناس إلى الله ورسوله، ونقول: "من استجاب لهذه الدعوة فلن تحيي موَاتَ جسمه فحسب، بل ستحيي وتخلّد موات القلب والروح أيضًا".

(١٠٣) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: سيرة ذاتية، الحياة الأولى، ص ٥٤.

فداءً للحق

سؤال: تقولون: "لا أحلُم بأن أكون فردًا في الماضي المجيد ولا المستقبلِ المشرق، بل ليتني فردٌ ممن نذروا أنفسهم للحقِّ اليومَ".

الجواب: كيف لا نشتاق إلى تاريخنا المجيد، ولا نتمنى أن نكون من صغار جنوده؟ عندما نذكر ونذاكر التاريخ العظيم ما منّا من أحد إلا ويهرول تلقائيًّا نحوه، فهذا أحد شعرائنا الأقدمين المحدثين الذين كانوا صدًى صادقًا لعصرهم، بل لعله أجلهم محمد عاكف ﷺ، يقول وقد طالته كوارث أيّامنا:

كبومٍ على الطَّلَلِ غدوتُ أنوح
فبلادي جنةٌ خريفها يلوح
ولو علمتُ ربيعَه لكنت بلبلَهْ
ليتني وُلدتُ قبل هذا أي أوَّلهْ!

وبينما نرى المستقبل المشرق الذي نرتقبه مفعمًا بالأمل كما وعد النبيّ ورأى الولي وبشَّر الحمام الزَّاجل، نرغب أن نسارع دومًا إلى المستقبل لنتخلص من أمورٍ راهنة كثيرةٍ نتشاءم منها.

ولنا أنْ نسـمِّيَ هذا النمط من التفكيـر "نهج الحنين"، أو اللجوء إلى الماضي أو المسـتقبل بالتمرّد على إفلاس هذه المرحلة السؤوم كما يتمرّد الفنان والرسام والشاعر على كل ما هو مألوف.

أجـل، إننـا جميعًا تُلِـمُّ بنا أحيانًا خواطر كهذه؛ بـل قد يردُنا منها ما ليس من شـأننا، وقد يبدو بعضها مساومةً لله سبحانه، لكننا نسارع بإخلاصنـا وصدقنـا لنصحّـح فهمَنا الخاطـئ، ونسـتغفر الله قائلين: "نسـتغفرك اللهم ربنا، فهذا أمر لا يعنينا، ما شـأننا وهذا؟ إنْ علينا إلّا أن نقوم بما كلّفْتنا، ونكفّ عمّا هو من شأن الربوبية"، ومهما بلغنا في الاستقامة والثبات فقد تشتطّ بنا الخواطر والخيال بل قد تزيـغُ قلوبنا نحو تلك التصورات الممسـوخة الزائغة، وأُذكِّرُ أن هذا ليس ذنبًا لا يُغفر كزيـغ القلب عن الإيمان، بل سيئةٌ غير مقصودة.

إن تاريخنا المجيد نستحسنه نحن وغيرنا كذلك، وهكذا سيكون مستقبلنا إن شاء الله على يد براعم ذلك الأصل المجيد.

ورغـم كل هـذا أفضّلُ -أنـا القطمير- أن أكون مـن عامّة الناس أقوم بالخدمة في يومنا هذا على أن أكون واحدًا من عظماء الماضي أو مِن رجال المسـتقبل حَمَلَةِ هذا الأمر على أعلى مسـتوى؛ وذلك لأمور:

١- ستفرز نجاحات المستقبل وعطاءاتُه الغيبةَ والحسدَ والبغضَ، وسـتكون غنائـمُ تقتضي الضرورة قسـمتَها، ويطغى حـبُّ المنصب والجـاه علـى القلوب وتشـتد الأطماع، والأحقـاد والأضغان، كيف

أعرف هذا؟ أعرفه لأن هذه الأشياء كامنةٌ في طبائع البشر، والتاريخ شاهد على أن الناس في مرحلة الرخاء والسعادة التي أعقبت فترات المعاناة والألم لم يتمكنوا ألبتة من الحفاظ على صفائهم وإخلاصهم الأول؛ فمن كانوا يجاهدون بالأمس في صف واحد تنازعوا في هذه الفترة من أجل المنفعة والمنصب، وبدّدوا في مرحلة الراحة والدعة كل ما كسبوه في وقت الشدة كما تذرو الرياحُ الهشيمَ؛ والحقُّ أني لا أودّ أن أعيش بعد مرحلة الخدمة مرحلةَ الفوضى والانهيار والدمار.

أسأل الله أن يستعملنا في الخدمة؛ وليقتسم الثمرة مَن يقتسم، فهذا الأمر ليس مُهمًّا ألبتة، ونسأله أن يُسعد إنساننَا، ويُنعِمَه بالطمأنينة، وليفعلوا بنا ما يشاؤون، فليجعلونا عمّالًا كادحين إن أرادوا أو فلينفونا، فهما سيان؛ سنعتزل في أعالي الجبال، ونقضي حياتنا زهادًا؛ ومن هذه الزاوية قلت: "أفضّلُ أن أكون من عامّة الناس أخدم في يومنا هذا على أن أكون من رجال تاريخنا أو مستقبلنا".

٢- نحن أبناء اليوم، ولا يمكن أن نكون من الماضي ولا من المستقبل، والذي ينبغي هو أن نستثمر يومنا استثمارًا كاملًا، فلن نعد الماضي أسطورةً ولا المستقبل خيالًا؛ وليس الماضي "مقبرةً كبرى"، ولا المستقبل مملكةَ غيلان؛ وإنّ الإعداد لمستقبلٍ يوازي تاريخنا المجيد رهنٌ بالاستفادة الجيدة من يومنا، ومن هذا المنطلق لك أن تقول: من شغلته الخدمة فحسب في يومنا، ونام وقام عليها، ولا يشغل قلبه سواها، فذلك خيرٌ له من أن يكون من السلاطين والملوك، بل حتى الأولياء والأقطاب والأغواث في تاريخنا.

٣- قد يسيطر الفخر والغرور -عافانا الله- على مَن خدم الدين في مرحلةٍ وأسهم فيها؛ وبهذا يَذهب أجره وثوابه؛ فيا حبّذا الرحيل عن هذه الدنيا قبيل نجاح المسلمين بهنيهات. أجل، ذلك هو وقت دعوة وتمنّي اللحاق بالرفيق الأعلى.

لهذا كلِّه قلتُ وأقول: "أفضّلُ أن أكون مِن عامّة مَنْ نذروا أنفسهم لله في يومنا هذا على أن أكون من رجال تاريخنا أو مستقبلنا"، والحقّ أني عاجز عن معرفة حقيقة هذه الخاطرة ولا أدري أهي خاطِرةٌ وفكرة شيطانية أم رحمانية؟ فالنفس خدّاعة جدًّا، والشيطان يزيّن للإنسان عمله، وقد تكون فكرة كهذه من تزيينه؛ والله أعلم بالصواب.